



«ترقى إلى جرائم حرب»، ماذا يعني ذلك؟

لا شيء. مجرد كلام وتلويع بالاتهام مع إدراك مُسبق لصعوبة المضي به، فالنظام الدولي عُطل بـ «فيتو» الدول الخمس الكبرى يوم أنشئ مفترضاً أن هذه الدول لا يمكن أن ترتكب جرائم كهذه. لكن ما يحصل في حلب جرائم حرب وجرائم ضد الإنسانية يقف العالم يازائها عاجزاً تماماً. أكثر من ذلك، كان مجرم الحرب، أو ممثله، مترئساً جلسة مجلس الأمن يوم السبت 08/10/2016 ليرفض مشروع قرار يطلب وقف إطلاق النار وإيصال مساعدات إنسانية مع آلية دولية للمراقبة. ولماذا يرفض؟ لأن المقترح يمنعه من مواصلة القتل والتدمر. أما مشروعه المضاد فلا يجيب عن سؤال منطقي بسيط: كيف تكون الهدنة ممكنة مع استمرار القصف الجوي؟ ما يعني بوضوح أن روسيا، ونظام بشار الأسد بالطبعية، يرفضان أي وقف لإطلاق النار.

كانت حلب في تاريخها المديد تعرضت للكثير من الغزوات والاعتداءات، ولم تشهد دماراً إلا في زلزال العام 1138 ثم في الغزو المغولي عام 1260 الذي أتبع التدمير بمذابح وحشية للسكان. بعد سبعة قرون، ها هو فلاديمير بوتين يسير على خطى هولاكو. كان السفاح المغولي يعيث دمويةً في عالم بلا قيم أو أعراف إنسانية، ولا قوانين فيه سوى الغزو والغنائم، أما السفاح الروسي فلا يستعيد أسوأ ما في الحقبة السوفياتية بل يستخدم ترسانته المتطرفة بنوازع بالغة المغولية ليعيد العالم إلى ما قبل الحضارة، حتى أن أميناً عاماً بائساً للأمم المتحدة وصف ما يجري في حلب بأنه «أكثر من مذبحة»، أما مبعوثه إلى سوريا، وهو أكثر تعاسة، فأورد تفاصيل مستندة إلى مصادر ميدانية لا يمكن أن تكون سوى أدلة إثباتية لجرائم حرب وجرائم ضد الإنسانية.

أن يُتهم بوتين بالإجرام فهذا لا يقلقه، بل على العكس يؤكد له أن دمويته «سياسة» تنجح وتكتسب وتحقق الأهداف، بل إنه ينذر متهميه بـ «عواقب قانونية» إن لم يخرسوا. وأن يصبح قرین على خامنئي وبشار الأسد وحسن نصرالله وقيس الخزعلي وبنيامين نتنياهو فهذا يعني أن لديه زبانية لا تقتصر على هؤلاء وقد نال مشروع قراره في مجلس الأمن أربعة أصوات بينها صوته وصوت مصر. منذ «الفيتو» الأول أدرك بوتين أنه يتقدم وأن ورقة سوريا تلمع زعامته الدولية في مقابل دولة عظمى وحيدة استطاع أن يجعل منها مهزلة كبرى وحيدة. ومع «الفيتو» الخامس أصبح متيقناً بأن طريقه إلى المجد وإلى تكريسه تلك الزعامة يمر بالركام وبأنهار الدم في حلب. أما أن يفشل المجتمع الدولي في عقلنة بوتين، اعتماداً على وازع إنساني أو أخلاقي أو حتى سياسي لديه، فهذا لا يترجم عنده إلا بالعجز العسكري عن تهديده وردعه.

قبل عام أرسل بوتين طائراته إلى سوريا واستعد لإنقاذ نظام الأسد، وقبل أن يطلق صاروخه الأول ذهب إلى نيويورك للقاء باراك أوباما على هامش الجمعية العامة للأمم المتحدة لعرض تنازلات في سوريا مقابل تقاسم في أوكرانيا مع رفع العقوبات المفروضة على روسيا، وأثار أيضاً ضرورة التفاهم على ملفات عسكرية موضع خلاف في أوروبا. لم يحصل على صفقة فشرع في جولة أولى من القتل والتدمير في سوريا ثم وجد مصلحة في الظهور كباحث عن حل سلمي وسياسي، وفيما تلاعב بالهدنات وبشروط التفاوض السياسي أكسبته الثنائية الروسية - الأميركية «اعترافاً» عالمياً بأنه صاحب قرار الحرب والسلام في سوريا، وكان مستعداً لأي من الاحتمالين، مهذباً ومصعداً، شرط الحصول على تلك «الصفقة» مع أوباما. ومع اقتراب ولاية الأخير من نهايتها وجد بوتين أنه لم يعد هناك ما يمكن توقعه من واشنطن فانتقل إلى ذروة التصعيد لتفجير وقائع الملف السوري، عسكرياً وسياسياً، استباقاً للإدارة الأميركية المقبلة.

مع «الفيفتو» الخامس ذهب بوتين بعيداً في الاستهانة بالمجتمع الدولي، وفي إذلال إدارة أوباما دائمة التخبّط في تحديد خياراتها. وما دام أحداً لا يستطيع ردّع «الدبّ الروسي» فإنّ الجلوس معه وهو يرفع يده وحيداً لرفض الإرادة الدوليّة شكّل «اعترافاً» بالأمر الواقع، الذي لم يعد تدخلاً بطلب من نظام تأكّد إجرامه في حقّ شعبه بل غداً احتلاًّاً روسيّاً ناجزاً لسوريا، بالتكافل والتضامن مع احتلال آخر تمارسه إيران وميليشياتها. وفي الأسابيع الأخيرة تضاعفت الترسانة الروسيّة على نحو غير مسبوق، وصادق مجلس «الدوما» الجديد على «اتفاق» يجعل الوجود الروسي في سوريا دائماً. نسي الجميع الطابع «الموقّت» والمتّعجل للتدخل، كما قدمها بوتين قبل عام، وأصبحت المهمّة طويلة ومفتوحة ومرتبطة بـ «الأمن القومي» وفقاً لسيرغي لافروف في تحليله لتدحر العلاقـة مع الولايات المتحدة واحتمال موافقة أوباما على ضرب قواعد ومطارات نظام الأسد.

لن تقع مواجهة مباشرة بين الدولتين الكبارين، إذ أنهما تتحاربان بسوريا وشعبها فيما يقول خطابهما الإعلامي أنهما «تحاربان للإرهاب».

والحاصل الآن أيضاً هو أن العجز الدولي يُطلق يد روسيا لتدمر كما تشاء في سوريا من دون أن تكون قادرة على الحسم عسكرياً ولتغرق في المستنقع من دون أن تكون قادرة على الحسم سياسياً. لكن الحاصل تحديداً هو سقوط سوريا ووشوك احتفال اختفائها من الخريطة، وإذا حصلت مواجهة فإن نظام الأسد سيحتفل لاقتتاله بأنها من أجله وبسبب الأهمية التي يتمتع بها، ولن يشاركه الاحتفال سوى الإرهابيين، إرهابييه الذين عول عليهم لإطالة عمره ويعولون عليه في بقائهم.

وأعياً أبلغ الروس إلى الفرنسيين والإسبان أنهم غير معنيين بالعمل معهم أو حتى مع الأمم المتحدة، لكنهم أبلغوا أيضاً إلى الأميركيين أنهم غير مستعدّين للتعاون/ التكاذب إلا معهم وإذا أرادوا أن تستمر «اللعبة» وتنجح فقد أصبحوا يعرفون ما المطلوب منهم. أي أنهم جعلوا الشعب السوري قضيّته رهن تناقضهم أو تناقضهم، مخّيرّينه بين «داعش» وبوتين، وقبل ذلك بين الأسد و«داعش». أي أنهم يدفعون به دفعاً إلى التطرّف، تدعّشاً أو تأفّغاً أو تصوّماً، على رغم أن لا مصلحة له في ذلك. لكن هذا ما يفرضه عليه الوجود الروسي «الدائم»، فالاحتلال الخارجي (الروسي والإيراني) يستدعي المقاومة والمواجة كما استدعاها الاحتلال الداخلي (الأسدي). أما معركة الحرية والكرامة فغدت معركة من أجل الاستقلال.

في أي حال كان الأسد والإيرانيون هم المستفيدون من «التعاون» الأميركي - الروسي لكنهم كانوا يخشون مقاييسات بين

الدولتين، إذ لمسوا أن روسيا متمسكة بأميركا لأن «الشراكة» معها توفر لها «مشروعية» دولية تحتاج إليها، بمقدار ما كانت متمسكة ولا تزال بالبحث عن «حل سياسي» ولو بالتفريق ليشكّل تغطية لتدخلها. أما وقد سقطت الأوهام والتمويهات فإن بوتين استعاد طبعه الإجرامي ليندفع نحو التدمير كحلّ عسكري، ولن يحصل عليه، فسوريا ليست الشيشان والعالم الذي تعامل عن تدمير غروزني لن ينسى جريمته في حلب. هل يتطلّب الأمر حرباً عالمية لإعادة إنتاج المجتمع الدولي وإنها العجز والشلل في مجلس الأمن، طالما أن «الفيتو» يمنع معاقبة نظام الأسد على استخدامه السلاح الكيماوي، كما أنه يساعد روسيا نفسها على تعطيل إدانتها على جرائم الحرب في سوريا؟

[الحياة اللندنية](#)

المصادر: